لغة الطبيعة

وأثرها في تقويم الخلق الانساني

تصدير للاستاذ اسماعيل مظهر

سلطان الطبيعة على الانسان

للطبيعة على الانسان سلطان غير محدود المدى ، ولا مقصور على ناحية خاصة من النواحي التي تتشعب فيها النفس الانسانية. يكفي لان تعتقد بهذا ان تذكر ان الانسان جزء من الارض ، وأنهُ من صميم ثراها نشأ وترعرع، ومن خيراتها عاش وتكاثر، ومن هوائها انتعش، ومن انهارها اغتذى ، ومن احجارها شيد ، ومن اشجارها تجَّد ، وفي حزونها ووهادها وتلالها وجبالها ضرب كل مضرب وسار كل مسار ، ومن مشارفها غذّى النفس، ومن مناظرها زود الخيال، ومن حقائقها كون العقل . سلطان موروث بالطبع ، لا مكتسب بالمران ، سلطان لا تبالغ اذا قلت أنهُ قطعة من الفطرة ، وجزء من الجبلّة ، تتراءى للطفل مخايله منذ ان يفتح عينيه لاول مرة على نور هذه الدنيا ، ولا تفارق الانسان خيالاته الا عند ما يغمض عينيه الغمضة الاخيرة ، ويخيم الموت على هيكله الترابي

على أن اهل العلم يحاولون اليوم أن يكسروا من حدة ذلك السلطان ، سلطان الطبيعة على ابنها الثائر. فيقولون بان الانسان استقوى على الطبيعة وأخضعها ، وأنه ذلّلها وألجمها ، ثم امتطاها. والحقيقة ان الانسان كلما ازداد استقواؤه على الطبيعة في ناحية زاد سلطانها عليه، واستبدادها به في نواحٍ اخرى . فاذا كان الانسان قد حبس تيار الكهرباء في سلك محصور في زجاجة مفرغة من الهواء فتوهج ، واذا كان قد امتطى الريح بآلات داخلية الاحتراق تدير محركات تضرب الهواء فترفع فيه جسماً اثقل منه ، واذا كان قد اسر البخار فمشى به فوق الارض وعلى متن البحار سالكاً سبيلاً ذلُلاً ، فان كل هذا وما يجري مجراه من المستكشفات التي استخدم فيها الانسان قوى الطبيعة ، انما تصبح للانسان اسراً جديداً بالتقليد والصفات المكتسبة والمادة التي تصبح على مرّ الاجيال فطرة . خذ لذلك مثلاً حركة الانتقال من مكان الى مكان . فان الانسان ظلّ قروناً ودهوراً ينتقل من مكان الى آخر مشياً على رجليه ، فلما الّف الحيوان اتخذ منهُ متوناً يسافر عليها ، وظهوراً ينقل عليها متاعه وزاده . فانتقل بذلك من حال اجتماعية الى اخرى . ثم استخدم

العربات ثم البخار ثم الكهرباء . وكان في كل مدرج من هذه المدارج مدفوعاً الى التطبع بما نال من انتصار على الطبيعة والتعود على حالات جديدة ، حتى اصبح اسيراً لهذه العادات بل عبداً لمخترعات عقله ، ومستنبطات ادراكه ، ومستحدثات تصوره ؛ فانتقل بتطور الحالات الاجتماعية من حال الى اخرى يستحيل عليه في الوقت الحاضر ان يرتد عنها أو يرجع بها الى الحالات الاولى التي درج عليها اسلافه الدهور الطوال . ومع هذا يقولون ان الانسان استقوى على الطبيعة ، ولكن الحقيقة انه استخدمها فأسرته ، وعبّدها فاذلته ، وذللها فصفّدته ، وخلقت منه خلقاً جديداً له عاداته التي لم يدرج عليها آباؤه الاولون ، ونزعت به منازع حديثة أحاطته بكثير من القيود الاجتماعية والحيوية ، كان أوائله محرَّرُون منها ، وعلى قدر ما كان جهلهم بالطبيعة واسرارها ، كانت حالاتهم الاجتماعية ، فكانوا ادنى من الفطرة واقرب لمطاليب الحياة الحرة على معناها الاوسع

ثم خذ مثلاً آخر . فان الانقلاب الصناعي ، الذي مني به العالم الحديث ، اذ خرج الانتاج من يد الصانع الى دوي الآلات الميكانيكية قد احدث حالة يدعوها البعض تغلباً على الطبيعة واعناتاً لها وتسوداً عليها . ذلك في حين أن الآلات افقدت الانسان مهارته الطبيعية ونزلت به من سماء الفن الى اسر الآلات الداوية ليل نهار، حتى لقد اصبح لها عبداً رقيقاً بل يخيل اليك كلما نظرت آلة يخدمها انسان ، ان الانسان قد انقلب آلة ميكانيكية وان ارادته فنت في ارادة الآلة التي يلاحظها ، فكأنه انقلب آلة وانقلبت الآلة انساناً

وكذلك الحال اذا تأملت في الامر من الناحية العقلية الصرفة . فلقد تحرر آباؤنا الاولون من كل شيء في الطبيعة الا حاجات الحياة الاولية من مأكل ومشرب ومأوى واخلاف النسل. ثم تصوَّرُ بضعة ارواح تحرك ما حولهم من كائنات . فلم يكن لهم من غرض الا الحياة على صورتها الطبيعية الصرفة ، والا تعليل الظاهرات بخضوعها لارواح او لقوات مما وراء الطبيعة ، تتحكم في كل ما ترى حفافيك من مظاهر الوجود . لم ير الانسان الاول في الطبيعة وجهاً للشكوى الا اذا تعارضت اعاصيرها مع حاجات حياته. اما الآن فان يوماً غائماً او شديد الرياح ، كفيل بان يشغل مئات من مكاتب المحامين، وبضع عشرات من القضاة في دور العدل . او كساد في السلع او نقص في الثمرات ، فانه زعيم بان ينتج ثورات طاحنة او فورات مهلكة ، أو حروب تأكل الاخضر واليابس . أو زيادة في رطوبة الجو تؤثر في الاعصاب تأثيراً من شأنه ان يرسل الكثيرين الى محاكم الجنايات ، وبالقليل منهم الى حبال المشانق . كل هذا نتيجة لاتساع افق التصور واستنباط العقل لكثير من خفايا الطبيعة مع عدم التساوي بين الناس في المعرفة . فان الفارق بين الذي يدرك أن المجرة بها نجوم تبعد عن ارضنا ملايين السنين النورية ، وبين الفلاح الذي قال لي مرة في يوم صائف ان الشمس لا بد من ان تكون اقرب الى الارض في القاهرة

منها في شمال الدلتا ، كبير ، اذا اعتبرت الحالات الاجتماعية التي تلابس الانسان في عصره الحاضر . فان الاول يدرك من المدنية انها نظام موروث تشابكت حلقاته الى درجة التعقيد ، في حين ان الثاني لا يدرك من هـذا النظام الاّ انه نظام خلق مع الارض مذ دارت لاول مرة في فلكها المرسوم . والفوارق التي تباعد بين طبقات المجتمع تخلق حالات يصبح فيها الانسان عبداً للطبيعة ولنظام الاجتماع الخاضع في كل الحالات لعوامل طبيعية يخرج عن طوق الانسان ان يحتكم فيها او يصرفها في الناحية التي يراها خيراً

لغة الطبيعة

لهذا ترى ان من اكبر الاصفاد التي قوّضت بها الطبيعة حرية الانسان ، تطور عقليته من ناحية ، وتطور نظمه الاجتماعية من ناحية اخرى . فان تطور عقليته نزع به الى حب الجمال ، وتطور نظمه الاجتماعية اوقعه فيما يدعوه الاستاذ لبير الالماني بالجشع الاجتماعي ، تلك الصفة التي اخضعت كل الفضائل الانسانيـة لرذيلة واحدة ، هي رذيلة الاستجماع وحب الحطام حتى اصبح المجتمع الانساني اشبه بنظام بدائيّ تنازعت فيه الميول والشهوات ، بدل ان تتنازع فيه الحاجات الاولية. ولقد يخيل اليك ان معركة التناحر على البقاء التي تقوم بين الاحياء في الطبيعة عفواً وبحكم الضرورات الحيوية وعلى صورة مجازية صرفة ، قد دارت في عالم الاجتماع الانساني خاضعة لقواسر لا ضرورة لها في الحياة ولا حاجة للانسان بها في نظام اكثر من نظامنا الحاضر تمشياً مع المعقول ومع الضرورة. وما السبب في هذا الاّ ان سواد الناس يجهل لغة الطبيعة او ان الناس جرياً وراء شهواتهم قد وضعوا للطبيعة اسلوباً غير اسلوبها وبلاغة غير بلاغتها ، على قدر ما يرضي في انفسهم شهوة التهالك على الحطام واستجماع ما هم في غير حاجة اليه

لهذا ترى ان المجتمع الانساني اصبح شبيهاً بسجن حيكت شبكتهُ من اوهام دنيوية ، خلقها ما يدعوهُ البعض تسوداً على الطبيعة واسراً لقوانها . على ان تسوّد الانسان على الطبيعة هو أحد تلك الاوهام التي تحاك منها شبكة السجن الدنيوي . ولو فقه الناس ان للطبيعة لغة يمكن ان تخاطبهم بها في صمت ، او لو انهم عرفوا ان الطبيعة لا تؤسر حتى تأسر ، إنها لا تستعبَد حتى تستعبِد ، وأنها لا تخضع حتى تُخضِع ، لامكن ان يكون للدعوة التي دعى اليها فلاسفة من اصحاب كبار العقول على مدى الايام الخالية ، بعض الاثر في صرف الناس الى متجه آخر اقرب الى مطالب الحياة لتكون الحياة اقرب الى الحرية ، وادنى الى الجمال الذي تصبو اليه النفس الانسانية كلما ضرب الانسان في مجاهل الطبيعة

يخيَّل الى الذين لم يقرأوا لغة الطبيعة على حقيقتها ان هذا النظام الاجتماعي القائم من حولهم بما فيه من معاهد ونظامات وجيوش وحكومات وسلطات قضائية وتشريعية وادارية ، وبما فيه

من منازع ومظاهر وقواسر ، قد خلق مع الطبيعة منذ ان برزت في عالم الوجود على ما هي عليه اليوم . اما لو فقهوا لغة الطبيعة اذن لعرفوا ان هذا النظام خاضع لما ندعوهُ « ارادة المجتمع الانساني » وتتكوّن من مجموع الظروف التي احاطت بالجماعات الانسانية منذ اول ظهورها على سطح هذا السيار في جماعات منظمة ، ومن مجموع المنازع والمشاعر والخيال ، ومن مجموع الانتصارات والهزائم والوان الحب والكراهية ، وفورات الانفعال والشهوة ، واطوار الحرب والسلام ، ومظاهر الاقدام والاحجام ، وعلى الجملة مجمل ما شعرت به نفوس اولاد آدم وما احاط بهم من عوامل منذ أبعد العصور . وان هذا النظام الاجتماعي يحوي من مختلف الصور ماهو اثر من آثار ما احاط بالشعوب من فعل البيئة والنشأة والوراثة والاستيطان وطبيعة الاقليم وتخطيط الارض الى غير ذلك من المؤثرات التي توحي اليك بها الطبيعة في لغة مفهومة سهلة بعيدة عن ان تكون كناية او مجازاً ، خالية من المحسنات اللفظية ، بعيدة عن الخطابيات التي تستعين بصور البلاغة ، موجزة لا اطناب فيها ، معجزة لا مؤوّل لها

والذين يعجزون عن فهم لغة الطبيعة يظنون ان الانسان خلقٌ وحدهُ وانهُ لا يمت الى الطبيعة بسبب وانهُ سيدها وإنهُ محور الكون وسيد المخلوقات ، الى آخر ما هنالك من مهزلة الخيال الانساني . فاذا فهموا لغة الطبيعة أدركوا ان الانسان احدى هبات الطبيعة لعالم الحياة ، اخرجته بالنشوء من جوفها العميق انسلالاً على مدى الدهور ، كما ينسل الليل من النهار ، ولكن في فترة مداها ملايين السنين وعلى غير استشعار بما جَمَّعَتْ فيهِ من وراثات وما حبت به جماعاته المتفوقة في الحياة من حظوة الانتصار في معامع التناحر على البقاء ، وبما بَعَثَتْ فيه هذه المعارك المتطاولة من شعور بالحاجة الى التعاون الذي كوّن هذا المجتمع الانساني ، بما فيه من مختلف الصور ، وبما يحوي من ضروب المعاهد والنظامات

وتوحي اليك لغة الطبيعة بان الارض سيار يدور حول الشمس وانه ثالث السيارات بعداً عنها وان فلكهُ على هذه النسبة من الشمس كان ملائماً لظهور الحياة في صورة حية اخذت تتطوّر على مدى الايام الطوال فكانت حيوانات رخوة ثم اسماكاً ثم زواحف ثم طيوراً ثم ثديات برز من خلالها الانسان متربعاً على عرش قسم منها ندعوه الرئيسيات . وان الارض كتلة مشتعلة انفصلت من الشمس مذ كانت سديماً بفعل جذب شديد سببه نجم ضال اقترب من ذلك السديم فامتد منهُ ذراع الى خارج فلك ابعد السيارات المعروفة ، ومن ثم اخذ يدور حول اصله في كرات تكاثفت ، فكان منها جبابرة من امثال المشتري وزحل ، واقزام من امثال عطارد والزهرة والارض والمريخ

ثم توحي اليك بان القشرة المتجمدة من الارض قد تناوبت عليها ادوار وتناوحت من حولها اعاصير كانت مياه الامطار وثورات البراكين وهزات الزلازل وطغيان المياه انهاراً وبحوراً ، بعض عواملها التي جعلت الارض على ما هي عليه الآن

ثم توحي اليك بان ظهور الاحياء على الأرض وانتشارها فوقها قد خضع لمؤثرات ندعوها مؤثرات الاستيطان وزعت الاحياء على الارض توزيعاً جغرافيًّا راجعاً الى حكم الضرورات والمقتضيات التي احتكمت في كل ما برز في الوجود من صور الوجود

وبهذه اللغة السهلة الموجزة تحدثك الطبيعة اذا نظرت الى السماء تستوحي شموسها واقمارها وسياراتها ، او اذا تطلعت الى الارض تستوحي تاريخها العجيب الذي يرجع بك لا الى مدنيات اليونان والرومان ، ولا الى مدنيات مصر وبابل واشور والهند والصين ، بل الى ملايين السنين ، حتى ليخيل اليك وانت تستوحي ذلك التاريخ ، انك تستوحي الابد او اللانهاية

والطبيعة في لغتها لا تنكر عليك الدليل ولا تلجأ الى مغالطتك ببرهان منطقي . بل دليلها في يدها وبرهانها في آثارها . دليل قائم وبرهان ناهض . ولذلك كانت لغتها اسهل اللغات على من يدرك كيف يقرؤها ، واشدها استعصاءً على من يجهلها ، وبرهانها قريب لمن يستطيع ان يستخلصه من طياتها ، خفي على من يقف العجز به بعيداً عن استخلاصه

كيف نتعلم لغة الطبيعة

لهذا كان جهل الناس بهذه اللغة السهلة الموجزة ، وعجزهم عن ادراك بلاغتها التي تتضاءل بجانبها بلاغة الاوضاع الانسانية ، سبباً في أن يصاب المجتمع الانساني بجمود العقل وانحطاط الروح الى درجة صورنا لك فيما قدمنا من الكلام صورة ضئيلة منها . ولكن كيف يمكن ان تتعلم لغة الطبيعة ، وكيف نعوّد الناس على ان يقرؤوها سهلة مذللة ، بعيدة عن مكابرات الجدل والسفسطة ، قصية عن أن تحتكم فيها الاوضاع الانسانية ؟ كيف نقرّب الناس من الطبيعة ، حتى يعرفوا ان الحياة ليست مجرد تكالب على الحطام ، ولا تهالك على الاستجداء ، وان شر ما تبلى به الجماعات رذيلة الجشع الاجتماعي ، التي خلقها مجتمع بعُد عن الطبيعة وجهل لغتها وعجز عن استقراء اسرارها ، وقعدت به مخايل الوهم الدنيوي عن الافتتان ببلاغتها ؟ لا سبيل الى هذا الا بأن نجمع لهم الطبيعة في دار ندعوها «متحف التاريخ الطبيعي» نسلسل لهم فيها تاريخ الكون على ما استطاع العلم حتى اليوم ان يدرك من اسراره العميقة

***

يأخذ الفنّان في يده قطعة من الصلصال لا صورة لها ولا شكل ، ولا انطباق لهيكلها على صورة من الصور الهندسية النّظيمة ، فيضغطها من ناحية ويمعجها من ناحية اخرى ، ثم يمضي في تصويرها رويداً رويداً ، واذا بك ترى امامك تمثالاً رائع الجمال يمثل ناحية من نواحي الحياة او لوناً من الوانها او عاطفة ثائرة او حبًّا كامناً او املاً او بغضاً او حزناً او تأملاً او غير

ذلك من الصور التي تستحيل اليها ملاح الاحياء وتعبر عنها تقاسيمهم. ويمسك المصوّر ريشتهُ وامامهُ لوحة بيضاء يخط عليها خطوطاً تحسبها لاول امرها عبث اطفال او تخطيط لامر يقطع الوقت ضجراً من الوقت . ثم لا تلبث ان ترى اللوحة وقد استحالت بريشته منظراً طبيعيًّا اخّاذاً بالالباب او وجهاً تجري فيه الحياة كما تجري في الاحياء، وقد برز لك من ثنايا الريشة والخضاب ، ليبعث في نفسك باعثاً بينه ويكوّن امام ناظريك حالة تامة من حالات الحياة دفعة واحدة. وما ان تغالط نفسك او تحملها على الانصراف عن ان تستحيل الى الصورة التي تعبر عنها الصورة ، الاّ وانت مجاهد في سبيل التخلص من اثر المصور في صورته جهاداً لا تخرج منهُ الاّ مهزوماً، ولا تفارقه الاّ وقد ثبتت في نفسك صورة لا تتغير ، لان نفسك استحالت اليها قد مغتها بطابع لا يزول ولا يتحوّل . ويجاس الشاعر منصرفاً الى تأملاته منحدراً تارةً الى حضيض اليأس، طافياً اخرى الى مسابح الامل ومسارح الحياة الانسانية ، يجمع من هنا فكرة ومن هناك خيالاً ، ويطرد ذكريات تؤلمهُ ليستلهم اخريات ترضيه ، حتى اذا تحركت في كيانه الشاعرية وانسجمت في نفسه المعاني فاستبان السبيل ، تدفق منهُ الشعر عقوداً منظومة وخيالاً مجسماً او طبيعة ناطقة بما تحس النفس الانسانية من مختلف صور الحياة التي تحياها . وعلى هذه الوتيرة يجب ان يجري العالم الطبيعي . فانهُ يجب عليه ان يجمع بين العلم والفنّ والخيال ، ليخرج للناس من الطبيعة صورة تعبر عن الماضي اقوم تعبير ، وليخلق من مجموع العلم والفن والخيال لغة للطبيعة يفهمها العالم ويدرك معناها المتعلم وطالب المعرفة . يجب عليه ان يقيم للطبيعة داراً تحيي بين جدرانها صورة تعبر لنا عن لغة الطبيعة الصامتة، تلك اللغة التي هي اشبه بلغة الفنان والمصور منها بلغة العلم ، في حين انها كلغة الشاعر خفية في المعنى . يجب عليه ان يجمع الاحجار والآثار المستحجرة من اسنان وجماجم واقدام وسلاسل فقارية وفكوك واصلاب واعجاز وزعانف وقروس الى غير ذلك ، ثم يعمل في مجموع هذه عصى العلم لا عصى السحر ، فتخرج منها ضباب هائلة وفيلة مائلة واسماك تقطن الماء بيوضة وولودة، وبرمائيات استحوذت بسلطانها على البر والماء، مقعدات وغير مقعدات، وطيور لها من صفات الزواحف القديمة اكثر مما لها من صفات الطيور في هذا الزمان، وذوات ثدي موحدة المخارج، ثم قوارض ثم سباع ثم مايمين ثم قردة عليا تمت الى الانسان او تمت اليها الانسان بأكبر الاسباب . ناهيك بعالم الحشرات ما انقرض منهُ وما بقي، ثم بعالم النبات ما علم منهُ وما خفي ، ثم بأحياء الزمان الحاضر وضروبها وانواعها واجناسها وفصائلها ومراتبها وقبلها ثم بمالكها وعوالمها. وهنالك ترى ان عصا العلم قد استقوت على عصا السحر، اذ تمر ض عليك تاريخ الكون من السديم والحواء، الى المادة والنظام، ومن الخلية الحية الى الانسان، وتطوف بك في ساعات، على ما كدّت الطبيعة في

هذا الكتاب

اما اليوم فنكتفي من « دار الطبيعة » بفصول يقدمها المقتطف الى قرائهِ هدية تصوّر لهم احسن تصوير بعضاً مما تكنهُ الطبيعة من الاسرار. وهي فصول دبجتها يراعة استاذنا الكبير المرحوم الدكتور يعقوب صروف، تناثرت كالدراري في اجزاء مختلفة من مجموعة المقتطف، بل من تلك الموسوعة الكبرى، التي لا ينقصها الاّ التصنيف لتكون موسوعة هي اقرب الموسوعات العربية الى الكمال. وقد رتب الكتاب احسن ترتيب وبوّب امثل تبويب فبدأ فيهِ بغرائب النبات ومنهُ تعرف ان — « غرائب الازهار اكثر من غرائب الاوراق والاغصان وابدع » ويضرب لك المثل « بوردة ظهر فيها غصن فيهِ اوراق ووردة اخرى » ثم ينبئك بأن — « اكثر غرائب الازهار في المكبّس منها اي الذي استحالت اسدينه ومدقه الى اوراق كما في الورد غير النسرين والقرنفل والزنبق المكبّس والمنثور المكبّس وهلمّ جرًّا. فان الاوراق تحاول التغلب على الاسدية والاسدية تحاول البقاء فتظهر على جانب الورقة او على رأسها او نحو ذلك مما يطول شرحه. والاوراق التي اصلها اسدية لا تتخذ شكلاً واحداً بل اشكالاً مختلفة كمن اضاع اصله وخلع العذار، فيتستر كل ساعة بستار » (ص٢). ثم تقرأ في « حيل النبات » فصلاً من امتع الفصول وحسبك ان تعرف منهُ ان — « الطرق التي يعمد النبات اليها للمحافظة على نفسه كثيرة منها ان بعضه ينبت بين العواسج والاشواك لكي لا تمتد اليهِ يد انسان مغتال ولا فم حيوان جائع. ومنها ان بعض انواعه ينزع عنهُ اوراقه متى انتهى زمن نموه يتخذ شكلاً مخصوصاً ويبقى مدفوناً تحت الارض لا سيما حيث يشتد الفيظ صيفاً والبرد شتاءً » (ص٧٠)

ثم تستروح باباً آخر في « بعض النباتات وطبائعها ». وحسبنا ان نوجه نظر القارئ الى فصل عقد في النارجيل او جوز الهند وقد قيل فيهِ إنّ « النارجيل من اكثر الاشجار نفعاً للانسان ان لم يكن انفعها كلها حتى قال المثل الصيني ان منافعه بقدر ايام السنة عدًّا ». وقال سكان جزائر البحر ان الذي يزرع نارجيلة يستغل منها لحماً ولبناً وبيتاً وثوباً واناءً وخيراً داعماً لهُ ولاولادهِ من بعده. فان الجوز نفسه طعام كافٍ لالوف والوف من البشر لا يقتاتون بغيره. ولبنه شراب لهم والشجرة نفسها تمتص المياه من ارضهم ولولاها لصارت سباخاً وبطائح كثيرة الحميات والامراض الأَجمية » (ص٣١)

ثم تقع في وسط الطبيعة الزاخرة بما الف الكتاب من نواحيها على أدب جم وموعظة حسنة ففي فصل في « الحشيش وفعله » تقع على ما نقل عن المقريزي — انهُ كان شيخ للفقراء اسمه حيدر كثير الرياضة قليل الطعام نشأ بخراسان واتخذ زاوية باحد جبالها ومعهُ جماعة من الفقراء واقام اكثر من عشر سنين لا يدخل عليهِ الاّ رجل واحد منهم. ثم خرج الى البرية في يوم شديد الحر وعاد وقد علا وجهه نشاط وسرور لم يعهد فيه قبلاً فاذن لاصحابه بالدخول عليهِ [illegible] عن هذا الحال الذي صار اليه فقال بينما انا في خلوتي اذ خطر ببالي الخروج

الى الصحراء فخرجت فوجدت كل شيء من النبات ساكناً لا يتحرك لعدم الريح وشدة القيظ ومررت بنبات مورقٍ فرأيتهُ يميل بلطف ويتحرك كالنمل النشوان ، فجعلت اقطف منهُ اوراقاً وآكلها ، فحدث عندي من الارتياح ما ترون فهلموا بنا حتى اريكم إياه فخرجوا ورأوه وقالوا لهُ هذا هو القنب ثم قطفوا من اوراقهِ واكلوا فحصل عندهم من السرور ما عجزوا عن كتمانه ، — ثم يقول — وشاع امر الحشيشة في بلاد خراسان وفارس . ولم يكن اهل العراق يعرفون سرها حتى ورد اليها صاحب مزهر وصاحب البحرين وهما من ملوك سيف البحر المجاور لبلاد فارس سنة ٦٢٨ ، فحملها اصحابهما معهم فاشتهرت في العراق ووصل خبرها الى الشام ومصر وفي نسبتها الى الشيخ حيدر يقول محمد ابن الاعمى الدمشقي :

دع الخمر واشرب من مدامة حيدر ... معنبرة خضراء مثل الزبرجد

الى ان يقول : وفيها معانٍ ليس في الخمر مثلها ... فلا تستمع فيها مقال مفند

ولا نص في تحريمها عند مالك ... ولا حدَّ عند الشافعي واحمد

ولا اثبت النعمان تنجيس عينها ... فخذها بحد المشرفي المهند

وكفَّ اكفَّ الهم بالكف واستر ... ح ولا تطرح يوم السرور الى غد

وقد نسب اظهارها الى اهل الهند عليُّ ابن الشاعر بقوله

ألا كفكف الاحزان عنَّا مع الضر ... بعذراء زفت في ملاحفها الخضر

تجلت لنا لما تحلت بسندس ... فجلت عن التشبيه في النظم والنثر

الى ان يقول : فقم فانف جيش الهم واكفف يد العنا ... بهندية امضى من البيض والسمر

بهندية في اصل اظهار اكلها ... الى الناس لا هندية اللون كالسمر (ص ٣٥ و ٣٦)

ثم تقفّي الى باب في فصول عامة تناولت الكلام في كثير من غرائب الطبيعة كالحيوان المزهر والنبات المفترس والاشباه والنظائر ومنها تعلم ان « في الاطفال مزايا كثيرة تشبه مزايا الحيوان الاعجم. فالطفل يظهر فرحه بالوثب والطفر كالجحش والمهر ، ويندفع الى سرقة الجائن والبسانين ولو كانت اثمارها غير ناضجة كما تفعل العجاوات . ويضع ما يخصه من الامتعة في فراشه ولاسيما الاشياء الصغيرة كاللعب ونحوها ، واذا خاف عليها من طفل آخر وضعها في حجره وضمَّ نفسه عليها ودفع الطفل الآخر بيديه ولجأ الى الصراخ . واذا كانت اسنانه نامية لجأ اليها في الدفاع عن نفسه وهذا شأن القرد تماماً ، بل شأن اكثر الضواري » (ص ٦٦) الى غير ذلك من الفصول الممتعة الشيقة وعلى الاخص ذلك الفصل الذي عقد في « زعماء الحيوان » وقد تناول البحث في زعامة « الذئاب » وزعامة « كلب الماء » من ص ٨٣ الى ٩٢ فان هذه الصفحات قلما قرأنا مثلها في كتب التاريخ الطبيعي على كثرة ما قرأناه منها ، لا من حيث الدقة في الوصف ولا من حيث السلاسة في الاسلوب او الترسل في البيان

ويعقب ذلك باب آخر في « الحيوان ادراكه واجتماعه » ، ويبدأ بحوار بين عالم وفيلسوف

ينتصر فيه العالم لفكرة النشوء وينتصر فيه الفيلسوف لفكرة الخلق، وفيه استعراض لجمل النظريات التي تنازع فيها الفريقان في نهاية القرن الماضي . وفي هذا الباب جملة من الفصول منها فصل في «لغة الكلاب والطيور» وآخر في «لغة القرود» فصّل فيها مذهب الاستاذ غرنر الاميركي الذي يدعي ان للقرود لغة تتفاهم بها . وتخرج من هـذا الباب بنتيجة مؤداها ان العقل والادراك في الانسان والحيوان واحد من حيث الاصل ، ولكنه يختلف في الدرجة فقط او كما يقول اصحاب المنطق متحد في الكيف مختلف في الكم

وينتقل بك الى الكلام في حيوانات بحرية ونهرية ويبدأ بحزائر المرجان يحتوي على قصيدة في وصفه من ابلغ ما في الشعر العربي . وهي مترجمة في اسلوب لا سمة للترجمة عليه. ثم يثني عليه بفصل من امتع ما قرأنا في كتب العربية عنوانه « الاركا والانسان » لا يبزه في قوة الوصف ومتانة التعبير وسلاسة الاسلوب الا القليل ممّا كتب ائمة المنشئين في عصر العربية الذهبي. واليك المثال:—

« لطم النسيم وجه الماء فتغضن وتقلبت الاركا فيه مكسالاً لا يهمها وطن ولا عطن وفلوها يسبح الى جانبها وهو يدنو منها حتى يمسها فيطمئن باله وكأن لسان حاله يقول اتسعت البحار او ضاقت وكثرت الاعداء او قلت ، فمن لاذ بأمه لا خوف عليه . وهي ارأم ام في الوجود فلما تبتعد عنه بل تضمه اليها من حين الى حين بزعنفتها او تدور حوله وتلمسه بشفتيها حتى يطمئن باله ويسكن بلباله» وكل الفصل على هذا النمط من الجودة والسمو (ص١٥٨) ثم يمضي في وصف حيوانات كثيرة منها فرس البحر الذي يقول فيه— « وقفنا بالامس في حديقة الحيوانات بالجيزة امام البركة الكبيرة التي يسبح فيها فرس البحر ورأينا حارسه فقال لنا اظنكم تريدون ان تروه فقلنا نعم فناداه واذا بالماء يموج ورأس خرج منه بمنخرين بارزين وعينين جاحظتين وجلد كلون الماء الآسن رمادي صقيل ، حتى اذا وصل الى حيث كان حارسه صعد الى البر فرأينا حيواناً ضخماً كالثور البدين مملوء الجسم مكتنز اللحم، ففغر فاهاً كالهاوية ، ووقف ينتظر كالمتسول اللجوج وهو ينفض رأسه ذات اليمين وذات اليسار ، وقد رسمت البلادة على وجهـه آياتها ، وضربت الذلة في عينيه اطنابها . فرمى الحارس في شدقه رؤوساً من البطاطس فالتهمها باسرع من لمح البصر وفتح فاه ثانية يطلب غيرها فرمى له رؤوساً اخرى فاتبعها سابقتها وفغر فاه ثالثة ولما رأى ان سلته طلعت فارغة هذه المرة ادار رأسه وعاد ادراجه ولسان حاله يقول

لقد علمت وما التقتير من خلقي ان الذي هو رزقي سوف يأتيني
اسعى له فيعنّيني تطلبـه وان قعدت اتاني لا يعنّيني
لا خير في طمع يدني الى طبع وغفة من قوام العيش تكفيني (ص ١٦٨)

ثم فصل في الحيتان قلما تقع على مثله في امتع كتب التاريخ الطبيعي وفيه وصف لأرقى اجناسها المعروفة مع ذكر الكثير من عاداتها واطوارحياتها . ثم الدلفين وهو من اغرب حيوانات

البحار ثم الاحياء المنيرة، الى الحياة في قاع البحار . ويعقب بفصل في الرعاد او السمك الكهربائي ومنه تعرف ان في الطبيعة كثيراً من الاحياء البحرية تحتوي اجسامها على شحنات كهربائية اذا نبذتها كانت كافية لدق جرس او انارة مصباح كهربائي فترة من الزمان . أمّا الكلام في الاخطبوطيات والاسفنج فمن امتع ما تنطوي عليه دفّتا هذا السفر العظيم

ويأتي بعد ذلك باب خص بوصف بعض الطيور كمالك الحزين والببغاء وطبائع الغربان التي تدهش اذا عرفت منها ـ «ان الذين ربوا الغراب وعلموه النطق يقولون ان جبة حيله لا تنفد ومهارته في تقليد اصوات الناس تفوق مهارة الببغاء . وهو يتعلم دواماً مما يراه ويسمعه ويمرن نفسه على ما يتعلمه حتى يتقنه ولا ينساه . وصوته مثل صوت الناس حتى لقد يلتبس به . روى بعضهم ان غراباً تعلم الجمل التي تقال في التعليم العسكري وكان يمشي مع الضابط صاحبه ويشاركه في تعليم الجنود او يكرر ما يقوله حرفاً حرفاً ، حتى كان الجنود يحسبون صوته صوت ضابطهم ويأتمرون به» . (ص٢٣٣) ثم يأتي بعد ذلك وصف النسر والعقاب ، ومن طبائعها ان العقبان ـ « اذا صادت شيئاً لا تحمله على الفور الى مكانها ، بل تنقله من موضع الى موضع ولا تقعد الا على الاماكن المرتفعة . واذا صادت الارانب تبدأ بصيد الصغار ثم الكبار . وهي اشد الجوارح حرارة وأكثرها حركة . ومن عجيب ما ألهمته انها اذا اشتكت اكبادها أكلت اكباد الارانب والثعالب كثيراً . وهي تأكل الحيات الا رؤوسها والطيور الا قلوبها ، ويدل على هذا قول امرىء القيس

كأن قلوب الطير رطباً ويابساً لدى وكرها العناب والحشف البالي (ص٢٤١)

ثم اوصافاً لطيور اخرى من اغرب ما في الطبيعة من ابناء الهواء.

فاذا انتهينا من باب الطيور واختتم بكلام في ريش الطيور قلما تقع على مثله في اوسع كتب التاريخ الطبيعي ، دخلت في عالم النمل والنحل ، واذا علمت ان عالم الحشرات اعجب اقسام مملكة الحيوان من حيث الطبائع والاقتنان في البناء والاكتناز ، عرفت الى اي احد يصل بك هذا الباب من علم باسرار الطبيعة الحية .ويختم الكتاب بباب فريد في الاسد والفيل

هذا بعض من الآثار التي خلفها استاذنا الكبير بين دفتي المقتطف، مدرسة الثقافة الحديثة. وكلما تصفحت قسماً من هذا الكتاب وانا جالس في نفس المكان الذي كنت اجلس فيه للاستاذ الاكبر قبل ان يطويه التراب ويطفىء نجمه الموت ، وبالقرب من مكتبه الذي كان يدبج عليه هذه الفصول وغيرها مما يسع صدر المقتطف الفسيح ، اذكر تلك الكلمة التي قالها العلامة « رينان » في ذكرى الفيلسوف الاكبر «سبينوزا» عند ما وقف تحت النافذة التي كانت يشرف منها الفيلسوف على احد ميادين امستردام قائلاً . « لعل الله كان اقرب الى هذه النافذة منه الى اي مكان في الارض » . اما الحجرة التي كان يشغلها الدكتور صروف رحمه الله ، فكانت الى الله ، كما كانت نافذة سبينوزا ، اقرب مكان في الارض

اسماعيل مظهر